الآثار الكاملة

٧



السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني

الشيخ محمد عبده

التعليقات على شرح العقائد العضدية

إعداد وتقديم: سيد هادي خسرو شاهي

مكتبة الشروق الدولية


بسم الله الرحمن الرحيم

التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية

الكتاب : **التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية**
المؤلف : السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني ومحمد عبده
إعداد وتقديم : سيد هادي خسرو شاهي
الطبعة الأولى ـ القاهرة
تاريخ النشر : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م



القاهرة ـ كوالالمبور ـ جاكارتا ـ لوس أنجلوس

تليفون وفاكس : ٢٥٦٥٩٣٩ ـ ٤٥٤٤٤٦٧ ـ تليفون : ٤٥١٩٦٢٨

Email : adel almoalem<shoroukintl@Yahoo.com>

الآثار الكاملة

(٧)

السيد جمال الدين الحسيني (الأفغاني)

الشيخ محمد عبده

التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية

إعداد وتقديم

سيد هادي خسرو شاهي



الفهرست

الموضوع — الصفحة

تقديم

سيد هادي خسروشاهي

بسم الله الرحمن الرحيم

«العقائد العضدية» تأليف عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، عضد الدين الإيجي المتوفى - في عام ٧٥٦هـ من علماء الكلام الكبار وكتاب «المواقف» من مؤلفاته أيضًا، وقد قام جلال الدين الدواني وهو من العلماء المشهورين في الفلسفة والكلام، بكتابة شرح لهذا الكتاب، الذي يعتبر من الكتب المهمة في العلوم الربانية لدى إخواننا أهل السنة.

وكتاب «التعليقات» القيم صدر في مصر مرة أو مرتين باسم الشيخ محمد عبده، وتاريخ تحريره حسبما جاء في الكتاب هو سنة ١٢٩٢هـ، أي عندما كان السيد يقيم في مصر ويدرس الفلسفة، في حين أننا نعلم جميعًا أن الشيخ محمد عبده في ذلك التاريخ بالذات، كان لا يزال طالبًا شابًا في الأزهر ومن تلامذة السيد الممتازين، ولا يعقل أن يقوم طالب في سن الثانية والعشرين من عمره بتأليف كتاب معتمد ومهم على هذا المستوى العلمي.

ويذكر محمد عبده نفسه كما ورد في المجلد الأول من «تاريخ الأستاذ الإمام»، بأنه: «تعلم الإشارات وحكمة العين وحكمة الإشراق وعقائد جلال الدين الدواني عند السيد. . . .» وهكذا، فإنه يصرح بأن علاقته بهذا الكتاب ستكون في مستوى تلميذ يتعلم عند السيد ولا يبدو من المعقول أن تكون هذه التعليقات من الشيخ نفسه.

واللافت للنظر، أنه في بعض الحالات قام الشيخ محمد عبده وبتوقيع منه، بكتابة هوامش على نص «التعليقات» وهذا من المستبعد، أن يقوم المؤلف مرة أخرى وبتوقيعه الخاص، بكتابة هوامش على تعليقاته!.

والأهم من كل ذلك، أنه يقول في التعليق رقم ٤٨ لدى البحث حول الإلهام الإلهي: «هذه القضية تحتاج إلى تفصيل ونحن تناولناه في رسالتنا حول مسألة الواردات. . . .» وطبعًا نعلم أن رسالة الواردات هي من السيد جمال الدين الحسيني، وقام الشيخ محمد عبده بصياغتها، كما صرح بذلك في مقدمتها.

ومما يدعو إلى مزيد من اليقين، هو استخدام الكلمات والتعابير التركية والفارسية والهندية والفرنسية والإنجليزية في أماكن عديدة من الكتاب، ونحن نعلم

بأن الشيخ محمد عبده لم يكن يعرف فى تاريخ تأليف الكتاب، أيّا من هذه اللغات، بل إن أستاذه جمال الدين الحسينى، هو الذى كان يعرف هذه اللغات.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، جاء فى الكتاب: «الوجود، المعبر عنه فى الفارسية بـ هستى! والعالم ما يعبر عنه فى الفارسية بـ دانا والله فى الفرانسوية ديو، وايزد ويزدان فى الفارسية وخود آينده معناها الوجود بذاته. خود بالفارسية: النفس وآينده اسم فاعل من آمدن، يعنى المجىء....».

وطبعًا فالشيخ محمد عبده نفسه، لم يكن على علم بأن الكتاب سيصدر باسمه فحسب؛ لأن الطبعة الأولى للكتاب صدرت فى عام ١٣٢٣هـ، أى بعد وفاته ولو كانت صدرت إبان حياته لا شك أنه وكما هى عادته، لم يكن يسمح بنشر الكتاب بدون اسم أستاذه.

ومن المناسب أن نشير إلى أن تعليقات السيد على شرح العقائد العضدية توقفت فى الرقم ٢٢٢، وإذا انتبهنا إلى القضايا المطروحة بعد هذا العدد نجد أنها تتعلق بالقضايا الفلسفية العميقة والأبحاث الاعتقادية المتنوعة والمختلفة، كالمعاد الروحانى وقضية الصراط والميزان والخلود فى الجنة أو النار ثم قضية العصمة والإمامة بعد النبى (ﷺ) يتضح جليًا لماذا اختتم السيد بحثه؟

أى بعد طرح قضية المعاد الجسمانى، ينهى السيد فجأة تعليقاته بهذه الفقرة:

«.. إلى هنا انتهى بنا سير الفكر، فوقف القلم، والحمد لله حيث بالخير تم.. وكان ذلك فى أواخر ذى الحجة الحرام، سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف من الهجرة المحمدية، صلى الله وسلم على مفتتح تاريخها وعلى آله وأصحابه».

فى الحقيقة، ينبغى القول: إن أستاذنا الشيخ، نعنى السيد جمال الدين، توقف عن الاستمرار فى البحث تجنبًا من الخوض فى قضايا خلافية، وبالأخص قضية الخلافة والإمامة، وإلا فإن الخوض فى قضايا كهذه بالنسبة للشيخ محمد عبده وبالنظر إلى معتقداته، أمر سهل ويسير جدًا وليس من المعقول أن يتوقف قلمه عنده!...

سيد هادي خسرو شاهي

القاهرة: رمضان المبارك ١٤٢٢هـ

المقـدمـة

دراسة حول كتاب:

التعليقات على شرح الدواني

للعقائد العضدية

الدكتور محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا النص هو عبارة عن كتاب كبير، جاء في صورة تعليقات (حواش) على شرح جلال الدين الدواني[1] على العقائد العضدية، لصاحبها عضد الدين الإيجي[2] . . وهو نص فلسفي على درجة عظمى من الأهمية والخطورة في العلوم الإلهية، لا يدانيه نص آخر من النصوص التي كتبت بمصر في هذه القضايا، في تلك الفترة من التاريخ.

والأمور التي بعثت على شكنا في نسبة هذا النص إلى الأستاذ الإمام محمد عبده كثيرة، في مقدمتها:

أولاً: أن الفراغ من تحرير هذا النص قد حدث «في أواخر ذي الحجة» سنة ١٢٩٢هـ، أي أوائل سنة ١٨٧٦م. . ولا نعتقد أن أربع سنوات من صحبة الشيخ محمد عبده للأفغاني كافية لتبلغ به هذا المستوى الفلسفي غير العادي في أمور، هي أعقد ما عرض للفلاسفة والمتكلمين منذ أن عرفت الفلسفة وعرف علم الكلام. . ولقد كان الشيخ محمد عبده لا يزال حتى ذلك التاريخ طالبًا في الأزهر، لم يتخرج

---

(١) محمد بن أسعد الصديق الدواني (٨٣١ـ٩١٨هـ/ ١٤٢٧ـ١٥١٢م) أحد الفلاسفة الباحثين، تولى قضاء فارس وتوفي بها. . كتب عددًا من المصنفات، وصنف مجموعة من الشروح والحواشي على بعض نصوص الفلسفة والكلام، وإلى جانب كتبه العربية ألف عددًا من الرسائل باللغة الفارسية.

(٢) عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) من علماء الكلام والأصول واللغة والبلاغة والتاريخ. . وكتابه (المواقف) أحد المصنفات الشهيرة في علم الكلام. نشأ بفارس، ونسبته إلى بلدته «إيج»، ومات سجينًا بقلعة كرمان بعد خلافه مع حاكمها. ولقد ترك آثارًا فكرية في فروع المعرفة المختلفة التي نبغ فيها.

بعد، كما أن مضامين مقالاته الإنشائية المنشورة ـ حتى بعد هذا التاريخ ـ كانت لا تزال بسيطة، بل وسطحية جدا إذا ما قورنت بهذا النص الفلسفي العميق. .

ثانيا: أن هناك اختلافًا بيِّنًا، في مستوى العمق، وأيضًا في بعض وجهات النظر، بين هذا النص وبين النص الآخر الذي أودعه الأستاذ الإمام آراءه الكلامية بعد ذلك، وهو (رسالة التوحيد). ولا يحق لأحد أن يحتج بأن آراء الرجل ربما تطورت، وبأن (رسالة التوحيد) ربما جاءت دون تعقيد؛ لأنه قد ألفها ككتاب مدرسي، لطلبة المدرسة السلطانية ببيروت أولاً سنة ١٣٠٣هـ/ سنة ١٨٨٦م، ثم في مصر بعد عودته إليها من بيروت. .

ذلك أن الحجة الثانية إذا صحت فإن الأولى لن تصح، وهي المتعلقة بتطوره الفكري؛ إذ لو كانت أفكاره التي أودعت (التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية) قد تطورت لعدلها عند طبع هذه التعليقات، خصوصًا وهو لم يعزم على طبعها إلا في أواخر حياته، أي بعد تأليفه لرسالة التوحيد.

ثالثًا: أن أسلوب هذه التعليقات خال من السجع، في حين أنها مكتوبة في مرحلة كان أسلوب الأستاذ الإمام لا يخلو فيها من السجع الملتزم إلا عندما يكون النص لغيره، وتكون له فقط الصياغة والتحرير. .

رابعًا: أن سياق التعليقات و **«فن»** تأليفها يقطع بأن كاتبها كان يدرس **(شرح الدواني للعقائد العضدية)**، وأنه كان يلقي بهذه التعليقات وهو يشرح القضايا التي عرض لها كل من «الإيجي» و«الدواني»، و«الدواني» بالذات. . . ولم يذكر أحد ممن أرخ للإمام في فترة حياته تلك أنه قرأ على تلاميذ له، ولا على طلبة الأزهر الذين كان يعيد عليهم دروس الأفغاني التي كان يلقيها ببيته في «خان الخليلي»، لم يذكر أحد ممن أرخ لحياة الإمام في هذه الفترة أن (شرح الدواني للعقائد العضدية) كان من بين الكتب التي شرحها لزملائه الطلاب.

خامسًا: أننا نجد العلاقة قائمة، بل وقوية، بين جمال الدين الأفغاني،

و«الدواني»، وأيضًا «العضد»، فهما من بين الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة الذين قرأ لهم وخالط فكرهم في أدوار التكوين الفكري لعقله الفلسفي، وذلك إلى جانب ابن سينا والغزالي وابن رشد والإمام الرازي وابن خلدون، والسهروردي، والكاتبي، والشيرازي.. إلخ.. إلخ..[1].

وأكثر من ذلك فإن الذين أرخوا لهذه الفترة من حياة الأفغاني في مصر يقطعون بأن (شرح الدواني للعقائد العضدية) كان من بين الكتب التي شرحها لطلاب علمه في منزله، وأنه قد علق عليها بما عهد عنه إزاء الكتب التي كان يشرحها ويتخذ من قضاياها مناسبات لطرح أفكاره على مريديه.. ففي هذه الفترة من حياته أقبل عليه والتف حوله لفيف من طلبة الأزهر «فكان ينبههم إلى ما في الإعراض عن الدراسات الحكمية (الفلسفية) - من علمية وصوفية - من نقص في العالم الإسلامي، يجعل نتاجه العلمي ضئيلاً منقوصًا، ونظره إلى الحقائق العلمية سطحيًا غير نافذ، حتى حبب إليهم شعورهم بهذا النقص السعي إلى تلافيه، فرغبوا إليه أن يدرِّس لهم طائفة من الكتب، فأقبل يقرئهم من عوالي كتب الكلام والأصول: العقائد النسفية بشرح التفتازاني، و **(العقائد العضدية بشرح الدواني)**، والتوضيح لصدر الشريعة بحاشية التفتازاني: التلويح، ومن كتب المنطق: شرح القطب الرازي على الرسالة الشمسية، والمطالع للأرموي، ومن كتب الحكمة العليا والتصوف: الإشارات لابن سينا، وحكمة الإشراق للسهروردي، **والرسالة الزوراء للدواني**، ومن كتب الهيئة والرياضيات كتب: الجغميني، والطوسي.. مع التوسع في كل ذلك، وإيراد الآراء الجديدة والاكتشافات، ومناقشة المذاهب والمقالات.. وكان في مقدمة المنتسبين إليه والآخذين عنه.. الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[2].

---

(١) انظر كتاب (التفسير ورجاله) للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ص ١٥٣، طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، مايو سنة ١٩٧٠م.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٧. ونحن عندما ننظر في هذه التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية، نأسف كل الأسف لضياع شروح الأفغاني هذه على هذه الأمهات من كتب الحكمة والمنطق والتصوف لهذه الكوكبة من علماء الإسلام؛ فلا شك أن في تعليقاته عليها وشروحه لها ما كان سيبرز لنا قسمة الفلسفة من شخصيته بأكثر مما هي بارزة الآن.

ويؤكد هذه الحقيقة المهمة أنها مروية عن الإمام محمد عبده ذاته، بواسطة صاحبه وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، الذي يؤرخ لهذه المرحلة من حياة الأستاذ الإمام فيقول: «أخبرني الأستاذ الإمام ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قرأ على السيد (جمال الدين الأفغاني) كتاب (الزوراء) للدواني، في التصوف، و (شرح القطب على الشمسية)، و (المطالع)، و (سلم العلوم)، من كتب المنطق.. و (الهداية)، و(الإشارات) و (حكمة العين)، و (حكمة الإشراق)، في الفلسفة، و**(عقائد الجلال الدواني) في التوحيد..** و (التوضيح) مع (التلويح)، في الأصول.. و(الجغميني)، و (تذكرة الطوسي)، في الهيئة القديمة، وكتابًا آخر في الهيئة الجديدة، نسيت اسمه..»[١].

فالأستاذ الإمام يعترف بأن علاقته بهذا الكتاب هي علاقة التلميذ الذي تلقى شرحه عن أستاذه جمال الدين.

فإذا علمنا أن «الرسالة الزوراء» للدواني ـ التي ورد هنا ذكرها ـ قد وردت المقارنة بينها وبين شرح الدواني للعقائد العضدية في ثنايا التعليقات التي نحن بصدد الحديث عن تحقيق نسبتها لصاحبها أدركنا أننا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق نسبة هذا النص إلى الأفغاني لا إلى الأستاذ الإمام.

سادسًا: أن كل الكتب التي شرحها الإمام ـ في هذه الفترة من حياته ـ للطلاب في الأزهر، أو في منزله، كانت من بين تلك التي شرحها أستاذه الأفغاني في بيته، مثل «إيساغوجي» في المنطق، و «شرح العقائد النسفية» لسعد التفتازاني، مع حواشيه، ومقولات السجاعي بحاشية العطار.. وغيرها.. مما يؤكد أن المصدر والمنبع ـ هنا ـ كان هو الأفغاني، وأن دور الأستاذ الإمام قد كان ـ يومئذ، بالنسبة لهذه النصوص الفلسفية ـ هو دور **النقل** إلى حلقة أخرى من الطلاب والمريدين، **ودور الصياغة والعرض والتحرير..**

* * *

(١) (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ ١ ص ٢٥، ٢٦.

تبقى بعد ذلك مشكلة أن الأستاذ الإمام قد وضع اسمه في مقدمته **المسجوعة التي طبعت في صدر هذه التعليقات غير المسجوعة!**، وقال فيها: «أما بعد.. فيقول من جد بالحق جده، الفقير إلى ربه «محمد عبده»: هذه **كلمات قليلة** تسفر عن دقائق جليلة، أبرزها فيض الأول، مع ما عندي من العجز والكلل. فقلت وعلى الله توكلت:..» ثم أخذت تتوالى التعليقات بأسلوب فلسفي لا يعرف السجع، ولا مكان فيه للمحسنات، ولا تناسب بينه وبين السطور التي قدم بها لها الأستاذ الإمام..

وهذه القضية تقتضي منا نظرة فاحصة، بمنهج تحقيقي، في نصوص الكتاب وما عليه من تعليقات؛ عسى أن نجد في هذه النصوص ما يزيل بقايا الشبهات التي يمكن أن يتعلق بها أولئك الذين ينسبون هذا النص إلى الأستاذ الإمام.. فماذا يعطينا النص من دلائل في هذا الباب؟:

١ ـ إن على هذه «التعليقات» «هوامش»[1] وضعها الأستاذ الإمام عند عزمه على طبع الكتاب، وقد وضعت في أسفل الصفحات، ويبلغ عددُها ثلاثة وعشرين «هامشًا»، وتبلغ في الحجم ما يوازي اثنتي عشرة صفحة إذا جمعت على حدتها:.. وهذه «الهوامش» تقدم لنا أكثر من دليل قاطع على أن صاحب (التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية) ليس هو الأستاذ الإمام.. فالهامش الخاص بالتعليق (١٤٥)، والذي يعلق به الأستاذ الإمام على عبارة: «وبالجملة، فالمعلول الأول مثلاً، بوجوده الخارجي، إنما يتبع علم الذات بالذات، **إذ مجرد علم الذات، علم مبدئيتها**»، يقول فيه الأستاذ الإمام: «**قوله: إذ مجرد**.. إلخ.. وإن شئت قلت: إن الواجب بعلمه بذاته، قد علم سلسلة الممكنات، إلى غير النهاية، بعلم المبدئية إلخ».

والشاهد الذي نلفت إليه الأنظار، ونستدل به هنا على ما نقول، هو تعبير

---

(١) [illegible] «هوامش» ، وهي من الكلمات [illegible] التعليقات [illegible]
[illegible]

الأستاذ الإمام بـ «قوله . . » فالقائل هنا بالقطع غير الأستاذ الإمام، إذ هو يشير إليه بضمير الغائب، ومعنى ذلك أنه ليس هو صاحب هذا الكتاب، وإنما هو صاحب هذه «الهوامش» على هذه التعليقات.

وهناك «هامش» آخر يعطينا دليلاً ثانيًا مشابهًا لهذا الدليل، وهو ما كتبه الأستاذ الإمام **على عبارة التعليقات** الواردة في التعليق (١٥٢) والتي يقول: «ولم يفرقوا بين دلالة المعجزات، ودلالة البراهين والمقدمات»، فيقول «هامش» الأستاذ الإمام معقبا: «**فإن زعم** أن المعجزة بنفسها. ليست برهانًا قلنا: . . . . ». .

والشاهد الذي نستدل به هنا هو أنه يشير إلى صاحب «التعليقات» بضمير الغائب، قائلا: «فإن زعم. . » وذلك يقطع بأنه ليس هو صاحب هذه التعليقات. .

وهناك «هامش» ثالث يعطينا دليلاً آخر مشابها، نجده في العبارة الواردة بالتعليق (١٥٩) والتي تنتهي بكلمة: «فتأمل»، فيأتي «هامش» الأستاذ الإمام مبتدئًا بقوله: **«أمر بالتأمل. .»**. فهو يتحدث عن صاحب (التعليقات) الذي «أمر بالتأمل» بضمير الغائب، قاطعًا بذلك أنه ليس هو صاحب هذه التعليقات. .

٢ - في «الهامش» الذي كتبه الأستاذ الإمام على العبارة الواردة بالتعليق (١٥٢)، دليل على أن جهد الأستاذ الإمام هو جهد «التحقيق والتعليق» على هذا النص الذي قلنا إنه للأفغاني، ففي التعليقات عبارة تتحدث عن خوارق العادات، وأن مجرد حدوث الخارق مقترنا بدعوى النبوة والرسالة ليس كافيًا في وجوب التصديق، وضرب مثلاً «بابن مقنع» الذي ادعى الرسالة وظهر على يديه خارق للعادة، ومع ذلك فهو كاذب. . تقول العبارة: «وكيف يكون مجرد الخارق، موجبًا للقطع عند الاقتران بالدعوى؟! وقد بلغك خبر ابن مقنع وأمثاله، ممن قد رقمت أحوالهم في صحائف الرجال، كابن خلكان وغيره». . فيأتي «هامش» الأستاذ الإمام ليقول لنا: «ففي ابن خلكان أنه أظهر صورة قمر يطلع ويراه الناس من مسافة شهر من موضعه ثم يغيب. وقد ذكر هذا القمر أبو العلاء المعري في قوله:

أفق إنما البـــــدر المقنع رأســـــه

ضــــلال وغي مــــثل بدر المقنع

وإليه أشار أبو القاسم «هبة الله بن سناء الملك» الشاعر، في قوله:

إليك فـــمـــا بدر المقنع طالعًـــا

بأســحــر من ألحــاظ بدر المعــمم

واسم هذا الرجل «عطاء» وقيل «حكيم». . وهو «هامش» «مُحقق» يتناول بالتعليق والتحقيق نصا كتبه كاتب آخر، يعرف ذلك بداهة كل من له دراية بكتب التحقيق، وما عليها من «هوامش» وتعليقات وتحقيقات.

٣ ـ وهناك دليل ثالث نستخرجه من نصوص التعليقات، وهو على جانب كبير من الأهمية؛ لأنه يحدد أن الزمن الذي شرح فيه (شرح الدواني على العقائد العضدية) كان في بدء إقامة الأفغاني بمصر، وقبل أن تتهيأ للشيخ محمد عبده أية أدوات يستطيع أن يدخل بها مثل هذا الميدان. . ففي التعليق (٦٤) يتحدث صاحب التعليقات عن الزمن الذي هو فيه، والذي يلقي فيه تعليقاته على نص الدواني، فيقول: «. . زماننا هذا الذي قد قام فيه القسيسون على ساق، وأخذوا يدعون الناس إلى التنصر. . »، فيأتي «الهامش» ليحدد هذا الزمن، بالنسبة لتاريخ طبع هذا الكتاب للمرة الأولى، فيقول: «كان هذا من فوق ثلاثين سنة». . فإذا كان الأفغاني قد جاء إلى مصر مقيما، وعرفه الأستاذ الإمام وصاحبه وتتلمذ عليه سنة ١٨٧١م، وإذا كانت وفاة الأستاذ الإمام قد حدثت في سنة ١٩٠٥م، فإن بين التاريخين أربعة وثلاثين عامًا، وإذا كانت «هوامش» الأستاذ الإمام هذه قد كتبت قبل طبع الكتاب ـ الذي طبع عام وفاته، أدركنا أن شرح نص الدواني على العقائد العضدية إنما كان في باكورة السنوات الأولى لمجيء الأفغاني إلى مصر سنة ١٨٧١م، يوم كان الشيخ محمد عبده مجرد طالب في الأزهر يخطو خطواته الأولى على سلم التحصيل لمثل هذا اللون من ألوان التفكير. . وعلمنا كذلك أن التاريخ المحدد للفراغ من هذه

التعليقات في سنة ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٦م، إنما هو تاريخ الفراغ منها، أو تاريخ صياغتها وتحريرها في صورتها هذه، **وهما التحرير والصياغة اللذان قام بهما الأستاذ الإمام بعد إملاء النص من الأفغاني على تلاميذه ومريديه . .**

وإذا كانت هذه بعض الأدلة المستخرجة من «هوامش» الأستاذ الإمام، فإن هناك أدلة كثيرة يمكن استخراجها من نص (التعليقات) . . ونحن نقدم منها ـ هنا ـ البعض، على سبيل المثال :

٤ ـ في التعليق (١٨٤) يتحدث صاحب (التعليقات)، فيقول : « . . . فقول المعتزلة : (يجب على الله الأصلح) إن كان يريد به ما ذكرنا، فنعم، **ولا خلاف لأصحابنا معه، خصوصًا الماتريدية**، لأنهم لا يجوِّزون العبث عليه تعالى» . . فنحن هنا بإزاء فيلسوف يتحدث عن الماتريدية، ومن هم على شاكلتهم بأنهم «أصحابه» . . فإذا وضعنا في اعتبارنا سنوات ١٨٧١، ١٨٧٢، ١٨٧٣م، وتخيلنا الأفغاني الفيلسوف، ومحمد عبده طالب الأزهر، فلا شك أن هذا القول سيكون من نصيب الأفغاني وليس محمد عبده! .

٥ ـ في التعليق (١٤١)، وأثناء الحديث عن رأي للدواني الشارح، يقول صاحب التعليقات : « . . وأنا أقول : لا وجه لالتزام الشارح هذا القول، مذهبا للمتكلمين . ونفى بعده عن مذهب الحكماء، **فإنه ـ كما لم يقل به أحد من الحكماء ـ لم يقل به أحد من المتكلمين سواه»** . . فمن الذي يستطيع في ذلك التاريخ أن يصدر مثل هذه الأحكام القاطعة، ويقول إن هذا القول لم يقل به أحد من الحكماء، ولم يقل به غير الدواني من المتكلمين؟! . . من يستطيع ذلك بمصر في ذلك التاريخ؟!، لا أعتقد أن في مصر بأسرها من كانت له إمكانية ذلك سوى جمال الدين الأفغاني . . فنحن نعلم مناخ الحركة الفكرية يومئذ، وكيف أن النوافذ التي فتحها الطهطاوي في ذلك القرن كانت ـ أساسًا ـ على أوروبا وحضارتها الحديثة، بينما ظلت دراسات الفلسفة والمنطق محرمة في الأزهر . . حتى أن الشيخ عليش كان يذهب بعصاه ـ بعد ذلك

التاريخ ـ كي يضرب محمد عبده ويفض مجلسه الذي ينقل فيه إلى طلبة الأزهر بعض ما يقوله الأفغاني ـ في بيته ـ من أفكار الفلاسفة والمتكلمين. . فقبل الأفغاني لم تعرف مصر ـ في عهدها ذلك ـ اهتمامًا بهذه الدراسات، وغير الأفغاني لم يكن هناك مفكر بمصر يومئذ يستطيع أن يجلس ويصدر مثل هذه الأحكام.

٦ ـ ليس هذا هو المثال الوحيد للنقد الموجّه من صاحب التعليقات للدواني، بل إن انتقاده ينتشر خلال التعليقات. . وعلى سبيل المثال فهو ينتقده بل ويهاجمه ويفند شروحه في التعليقات: (٢٤) و(٢٩) و(٣٧) و(٣٨) و(٤١) و(٤٢) و(٤٣) و(٤٤) و(٤٥) و(٤٦) و (٤٧) و(٤٩) و(٥٣) و(٥٤) و(٥٦) و(٦٧) و(٧٢) و(٧٩) و(٨٧) و(١٠١) و(١٤٥) و(١٦٨) و(١٧٦) و(١٨٠) و(١٨٩). .

وفي هذه التعليقات يوجه إليه الانتقادات التي تصفه «بالتمويه» و «الزعم»، وتقرأ عبارات مثل: «إن كلام الشارح من أصله بين الفساد»، و «في غاية الفساد»، وأنه «يلعب بالخيال لغفلته عن مأخذ البرهان»، وأنه قد «حصل له اشتباه»، و«في كلامه خبط، وإيهام الغلط»، وفي عبارته «قلق، وتشويش»، وكلامه «لم يأت بما يعلق بقلب الأذكياء، ولا بما يحتاج إليه طالبو اليقين»، وأن في كلامه «افتراء على الحكماء والمحققين»، وأنه أحيانا «لم يفهم حقيقة كلامهم فأورد عليهم ما لم يكن يرد»، وأنه «لقصوره عن بيان مذهب الحكماء أتى بعبارة شنيعة لا يليق أن يتفوه بها عاقل. فضلا عن حكيم عمدته البرهان!». .

إلى غير ذلك من النقد الذي وجهه صاحب التعليقات إلى الدواني شارح (العقائد العضدية).

بل لقد ضمت التعليقات نقدًا موجهًا إلى المصنف ـ عضد الدين الإيجي ـ عندما وصفته «بالتوهم»، ووصفت بعض آرائه بأنها «خرافة سقيمة» ـ التعليق (٧٩) ـ كما يوجه صاحب التعليقات نقده إلى التفتازاني، صاحب (المقاصد)، مع الإيجي، ويرجع غلطهما معًا إلى توغلهما في «المقالات اللفظية»، التي جعلت سامع بعض

أقوالهم «يتجرع الغصص من أوهام بعضها فوق بعض!» ـ التعليقات: (٧٩ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨). .

وغير الدواني والإيجي والتفتازاني ينتقد صاحب التعليقات كلا من: إسماعيل ابن مصطفى الكلنبوي (١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م) وعبد الحكيم السيالكوتي (١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) وأبي حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) وأبي الحسن الأشعري (٢٧٠ ـ ٣٣٠هـ/ ٨٨٣ ـ ٩٤٢م) والشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ/ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م)، وتتناثر انتقاداته هذه في التعليقات: (١٤٥) و (١٥١) و(١٥٣) و (١١٥) و (٢١) و (١٤٨) و (١٣٨). وهي الانتقادات التي تستخدم كلمات «الزعم» و «الهباء المنثور» و «الهذيان» و «الإغراب» و «عدم الإحاطة» وصدور الكلام «من غير عارف» وورود الكلام على نحو «غير تام». .

بل إن صاحب التعليقات يسحب انتقاداته أحيانًا غير قليلة إلى متكلمي أهل السنة عمومًا، فيصف بعض آرائهم بأنها «هذيانات لا قيم لها»، وأنهم «يقتفون آثار المقالات، وتمويه العبارات» وأن «مثل هذه الأراجيف» التي قرروها في بعض القضايا إنما هي من «باب الطغيان في القول» وثمرة «للتعصبات المذهبية والعصبية التي تخشع بين يديها عصبية الجاهلية»، وأن بعض كلامهم «في غاية البرود، مخالف للذوق والعقل والشرع، ورمي بغير برهان. .» وأن «أرباب هذه المقالات قد فتحوا على أنفسهم أبواب الكفر والجهالة، وقد ضلوا وأضلوا غيرهم من القاصرين. بأن سموا أنفسهم (أهل السنة)، وقد برئت منهم السنة وصاحبها!». وتتناثر انتقاداته تلك في التعليقات: (٨١) و (٩١) و (٩٢) و (٩٧) و (١٠٤) و(١١٣) و (١٤٥) و (١٤٩) و (١٦٢) و (١٧٤) و (١٨٠). .

ولا نعتقد أن باحثًا محققًا يدرك مكان الفيلسوف جمال الدين الأفغاني ومكان طالب الأزهر ـ يومئذ ـ محمد عبده، يجد من المستساغ أن يقول بأن صاحب هذه الانتقادات الموضوعية والمؤسسة على البحث والاجتهاد الفلسفي، هو طالب الأزهر محمد عبده دون الفيلسوف جمال الدين!!.

٧ ـ دليل سابع، وقاطع، نستخرجه من نصوص التعليقات، نجده في التعليق (٤٨) عند الحديث عن علم الله سبحانه، فإن صاحب التعليقات يحيل على رسالته (الواردات)، فيقول: «وتحقيق علم الله تعالى يحتاج إلى بسط ليس هذا محله، وقد يأتي. وقد بسطنا الكلام فيه بسطًا إجماليا في رسالتنا (الواردات) ولعلنا نأتي على غايته في كتاب آخر».

ولقد حققنا نسبة رسالة (الواردات) هذه إلى الأفغاني، مستدلين على ذلك بكلام الأستاذ الإمام محمد عبده نفسه.

ولقد تكررت، في التعليقات، الإشارة والإحالة إلى رسالة (الواردات)، أكثر من مرة، كما في التعليقات: (١٤٧) و (١٧١) و (٢٠١)..

٨ ـ دليل ثامن، نستخرجه هو الآخر من نصوص التعليقات، ونلتقي بجزئياته في عدد منها، مثل التعليق (٤٨)، عندما يعد صاحب التعليقات بتناول مسألة علم الله في كتاب آخر.. وفي التعليق (١٤٩)، عندما يتحدث عن مسألة اختيار الله في أفعاله، والخلاف اللفظي حولها، ثم يقول: «ولعل الله تعالى يوفقنا لإيضاحها إيضاحًا شافيًا في غير هذا الكتاب..».. وفي التعليق (١٨٧)، عند التعرض لقول الأشعرية: «إن الله لا يصدر منه القبيح»، فيقول: «هذا قول جميل، أخذوه على غير وجهه، وقد نشرحه في غير هذا الكتاب»..

فهذه الوعود الكثيرة المتناثرة في التعليقات، والتي قدمنا نماذج منها، لا يمكن تصور صدورها عن محمد عبده، طالب الأزهر، ابن الأربعة والعشرين عامًا!.

وتفسيرها أنها وعود من الأفغاني بتوفية هذه القضايا حقها من الشرح في الكتب الفلسفية والكلامية الأخري، التي كان قد أخذ في شرحها وإشاعة أفكارها، فيما يشبه البرنامج المنظم ـ في بيته ـ على زواره وطلاب علمه ومريديه.

٩ ـ ثم إن هناك مجموعة من الحقائق الأخرى التي نلتقى بها في ثنايا هذه التعليقات، والتي إذا جمعناها كونت قسمات بارزة ومميزة لصاحب هذه

التعليقات، وجعلتنا نقطع ـ على ضوء وضع ومكانة وإمكانيات كل من الأفغاني ومحمد عبده في ذلك التاريخ ـ بأن صاحب هذه التعليقات هو الأفغاني وليس محمد عبده، فالتعليقات كانت تلقى دروسًا يشرح بها صاحبها (شرح الدواني على العقائد العضدية).. وفي تلك الفترة الزمنية كان الشارح والمدرس هو الأفغاني، بينما كان محمد عبده في مكان المريد المتلقى عن أستاذه، والمدون لأمالي هذا الأستاذ.. ولقد سبق أن أشرنا إلى رواية المؤرخين الثقات بأن (شرح الدواني للعقائد العضدية) كان من بين الكتب التي عرضها وعلق عليها الأفغاني في تلك الفترة الزمنية بمنزله بخان الخليلي بالقاهرة.. أما النصوص التي ضمتها التعليقات ـ والتي تشهد بأن هذه التعليقات كانت هي موضوعات الدرس ـ فإنها كثيرة.. فصاحبها يقول، مثلا، في ختام التعليق (٧٩): «وبالجملة، فالكلام مع الناظرين في هذه المسألة طويل، والوقت ضيق!».. وفي التعليق (١٦٨) يقول: «فدقق النظر جدا، فليس لي مجال التوسعة في الكلام، لضيق الوقت ونقص المرام!».. وفي التعليق (٨٦) يقول: «وليس هذا الكتاب كتاب البسط في المقال!».

فهو هنا، وفي كل حالة من حالات تلك الأمثلة، مدرس وشارح يختتم مجلسا من مجالس الشرح لحلقة تلاميذه ومريديه..

وكما قلنا، فلقد كان المدرس الشارح يومئذ هو جمال الدين..

١٠ ـ هذا الشارح المدرس لم يكن ـ كما تؤكد نصوص تعليقاته ـ إنسانا عاديا، ولا متوسطا، بل ولا قريبًا من قمة العلم والفلسفة الإلهية؛ لأن تعليقاته هذه تقطع بأن منشئها هو قمة القمم في الفلسفة الإلهية في ذلك التاريخ وذلك المحيط، ونستطيع أن نلمس هذا من عمقها وإحاطة صاحبها بمذاهب علماء الكلام والفلاسفة والمحققين والحكماء، ومن مقارناته بين هذه المذاهب، وملكة النقد القوية التي تحلى بها، والجديد الذي يقدمه في الجدل الذي زخرت به هذه التعليقات، كما نستطيع

أن نلمس هذا مباشرة من عديد من النصوص التي ترسم صورته وتحدد مرتبته في هذا المقام . .

فهو يتحدث ـ في التعليق (٤٥) ـ حديث مَنْ أحاط علما بمذاهب الحكماء في وحدانية الذات الإلهية ، عندما يقول : إنه «قد تقرر في مدارك الحكماء أن الواحد من جميع الوجوه لا يصدر عنه إلا واحد . وألحقوا هذا الحكم بالبديهات ، ونبهوا عليه ببعض تنبيهات ، منها ما ذكره الشيخ الرئيس في (الإشارات) حيث قال : . . إلخ . . إلخ . . » .

وفي التعليق (٨٠) يتحدث «المحقق» ويقول لسامعيه : «ولكن ذلك يصعب إدراكه على غير المحققين ! » .

وفي التعليق (٨٣) يكشف عن أنه صاحب مذهب في «التحقيق» ، عندما يقول : «وهذا قول يجري على تحقيقنا وتحقيق مذهب الحكماء ! » .

أما التعليق (١٥٣) فإن بعض عباراته تكشف لنا أن صاحبه ليس مجرد «محقق» وصاحب نظر فلسفي . وإنما هو قد بلغ في هذا المضمار مبلغ من لديه من الحقائق الفلسفية والصوفية فوق ما تطيقه مدارك السامعين . فهو يقول لسامعه : «وههنا سر لو اطلعت عليه لقمت على الساق ، وهمت هيام المشتاق ، ولكن لعدم الاستعداد ، ما أمددت المداد بالإمداد ؟ ! » .

وفي التعليق (٢١٠) يتكرر الموقف عندما يقول : «وهذا قول مجمل ، فاطلب تفصيله من غير هذا الكتاب ، بل تحته سر عجيب فأدخل يدك في جيبك تخرج آية أخرى . فافهم ! » .

وهو هنا يذكرنا بكبار فلاسفتنا ، من أمثال أبي الوليد بن رشد (٤٥٠ ـ ٥٢٠هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١٢٦م) عندما كانوا يمسكون عن «كشف» كل الحقيقة في كتبهم «الكلامية» ، ويحيلون صاحب الاستعداد إلى «كتب الصنعة» ! بل إن صاحب

التعليقات يجهر بهذا في التعليق (١٨٩) عندما يقول: «فافهم وأمعن النظر، وههنا مقال آخر يتعلق بالمبحث، **ولكن لا يتحمله علم الكلام!**».

أما في التعليق (٢١٩) فإنه يكشف لنا كيف أدرك نظره في عبارات الدواني ما لم يدركه جميع الذين «نظروا» قبله في هذه العبارات، يقول: «وقد خفي مقصده هذا عن جميع من رأيت كلامه من الناظرين في كلام الشارح، فبعدوا عن الغرض في كلامهم، وخلطوا كثيراً!».

فهل يحق لباحث أن يتصور هذا الكلام كلاماً لمحمد عبده، طالب الأزهر، ابن الرابعة والعشرين، الذي كان في بداية تلمذته على الأفغاني، يسجع عندما ينشئ، ومبلغ جهده يومئذ لم يتعد تحرير أمالي أستاذه ونقلها إلى حلقة من حلقات المريدين الطالبين في الأزهر الشريف؟!.

١١ ـ ثم إن هذه التعليقات تكشف لنا أن صاحبها كان عالماً بعدد من اللغات غير اللغة العربية، فهو في شرحه لاسم الذات الإلهية وحديثه عن صفاته يقارن المعاني التي لمصطلحات هذا المبحث في اللغات: العربية، والفارسية، والتركية، والهندية، بل والفرنسية، والإنجليزية.. وتلك كانت ـ يومئذ ـ إمكانيات الفيلسوف جمال الدين ـ كما هو ثابت من ترجمته التي كتبها المؤرخون لحياته وتربيته وتعليمه ـ ولم تكن بالقطع إمكانيات محمد عبده في ذلك التاريخ.

وإذا شئنا أمثلة على هذه الحقيقة وجدنا التعليقات تمدنا بالكثير..

ففي التعليق (١٥١) ينقل صاحبه عن كتاب (الداوستان) وهو كتاب فارسي..

وفي التعليق (٧٩) يلجأ إلى اللغة الفارسية في الانتصار لمذهبه وهو يفسر معنى «الوجود»، فيقول: «والتقرير الحق لكلامهم أن يقال: ليس الوجود ما ألفوه من انتزاعات، أو ما ظنوه من وصف قائم، **بل الوجود هو ما به الشيء يتحقق في الخارج، المعبر عنه في الفارسية بـ(هست)..**».

وفي التعليق (٨٨) يلجأ للفارسية في تحديد معنى «العالم»، فيقول: «ليس العالم من له صفة قائمة بذاته يقال لها: العلم، أو من قام به صفة زائدة يقال لها: العلم، كما بني عليه. **ولكن العالم ما يعبر عنه في الفارسية بـ (دانا)**، وفي سائر اللغات بمرادفه، ويعبر عنه في لغتنا ـ أي لغة الفلاسفة الإلهيين المتوصفين ـ بمن كشف له حقيقة الأمر. وقواعد العربية ـ في فن الاشتقاق، لإجراء التعاليم، أو ما يشبه ذلك ـ لا تقدح في البراهين العقلية..».

ويعود إلى نفس القضية في التعليق (٩٦) فيقول: «.. بل معنى العالم: **ما يعبر عنه في الفارسية بـ (دانا) وبمرادفه من سائر اللغات، كما قدمنا. وليس يفهم منه أهل تلك اللغات: من قام به (وانست) أو مرادفه**، بل يفهمون منه المنكشف له الشيء على الوجه الخاص، وهو أعم من أن تقوم به صفة تسمى علمًا أم لا..».

وفي التعليق (٢١١) تتسع دائرة مقارناته اللغوية، وهو يعرض «لأعلام ذات الرب»، فيقول: «ولكل قوم أن يصطلحوا في ذلك على ما شاءوا.. ولنا أن نستدل على إثبات صفات كمالية للواجب تعالى، ثم نعبر عنها بمشتق يطلق عليه، وإن هذا إلا تسمية، وأما من فرق بين التسمية والتوصيف، فذلك رجل قد خنقته العربية! **وإطلاق القول في المنع جهل بموارد اللغات، وقصور عن الاطلاع**.. ولم يرد نص بإيجاب تغيير الألفاظ غير العربية، مما يدل على الله تعالى، وإن أمكن التأويل في بعضها بالتوصيف لم يمكن في الآخر، **كـ (ديو) في الفرنساوية، و (دئو) في الهندية، و (ايزد) و (يزدان) في الفارسية**، فإنها عند أهل اللغة أعلام على ذات الرب، لا يفهم منها معنى التوصيف بوجه».

وفي التعليقين: (٢١٣) و (٢١٤) يقدم تفسيرات لمعاني الكلمات الفارسية والتركية التي وردت في (شرح الدواني على العقائد العضدية).. فلقد ذكر الدواني كلمتي (خداي وتكري)، ويفسرهما الأفغاني، فيقول: «خداي: اسم الله بالفارسية. و تكري ـ بفتح التاء وكسر الكاف المغلظة ـ اسم الله بالتركية».. كما

يفسر معنى عبارة الدواني : **(خود آينده)** فيقول : إن معناها : «الموجود بذاته» . خود ـ بالفارسية : ـ «النفس» و **«آينده»** : اسم فاعل من **«آمدن»** بمعنى : «المجيء» ، أي آت بذاته . . » .

فهذه التعليقات تأتي دليلاً على أن صاحبها كان عالمًا بهذه اللغات غير العربية ، إلى الحد الذي يمكنه علمه بها من أن يتناول مصطلحات «أعلام ذات الله وصفاته» ـ كما وردت بهذه اللغات ـ والمعاني الفلسفية التي لهذه المصطلحات ، مع مقارنة كل تلك بمثيلاتها في اللغة العربية . .

كما يكشف هذا الدليل أن المجلس الذي كانت تلقى فيه هذه الشروح والتعليقات كان يضم نفرا من السامعين الذين يحسنون الفارسية والتركية . . وهي أمور تقطع بأن جمال الدين كان صاحب هذا المجلس ومنشئ هذه التعليقات ، فلم يكن محمد عبده ـ طالب الأزهر يومئذ ـ على علم بهذه اللغات حتى يغوص في بحرها بحثًا عن المعاني الفلسفية لأعلام الله وصفاته .

إذن فنحن نرى **أن صاحب التعليقات هو الأفغاني ، وأن تلميذه محمد عبده هو جامعها ومحررها ، على العادة التي شاعت وأصبحت قاعدة في علاقة الأفغاني بمريديه ، أن يملي ، ويكتب تلاميذه ومريدوه . . ولقد كانوا يكتبون نص كلماته ، حتى لو ضمت الأمثلة والمصطلحات العامية ، ولم يكن لأحد منهم أن يتدخل في التحرير والتدوين بالصياغة والتعديل سوى المريد المفضل : محمد عبده . .**

ولقد كان الأفغاني يسمح ، بل ويوعز ، إلى مريديه أن ينشروا أماليه بأسمائهم في الصحف والمجلات ، ومن هنا كانت نسبة عدد من نصوصه ، التي أملاها ، إلى عدد من هؤلاء المريدين مسألة مألوفة للمعاصرين ، فهي نصوص تعبر عن فكر هذه المدرسة التجديدية ورأس هذه المدرسة بنشر أفكاره إما بأسماء مستعارة ـ مزهر بن وضاح مثلاً ـ أو بأسماء مريديه ، تشجيعًا لهم على الكتابة وتقديمًا لهم إلى الرأي العام ، ومحاولة منه كي يصنع كوكبة من الكتاب المنشئين . .

١٢ ـ وإذا كان لنا أن نضيف إلى ما قدمنا من حقائق ـ تشهد لرأينا هذا ـ حقيقة أخرى، فإنها تأتي قاطعة وصريحة، ـ فمحرر ومدون التعليقات ـ الذي نقول إنه الشيخ محمد عبده ـ يذكر في متنها أنه يدون عن أستاذه، الذي يملي هذه التعليقات فيحكي نقد أستاذه ـ الذي يدعو له بدوام العمر وخلوده ـ لبعض آراء الإمام الغزالي، فيقول: «قال الأستاذ ـ خلد الله دوامه ـ: العجب لهذا الكلام، كيف صدر من مثل هذا الإمام؟ . .

أما أولاً: . . » ثم يستمر في عرض آراء الأستاذ . .

وفي نفس التعليق ـ التعليق (٢١) ـ ترد عبارات لصاحب التعليقات تدل على أن محمد عبده كان واحداً من الحاضرين للدرس المتلقين لهذه التعليقات، إذ يذكر صاحب التعليقات اسم محمد عبده، وهو يضرب مثلاً من الأمثلة التوضيحية لإحدى قضاياه عندما يقول:

«وقد قالوا: لا تتفق الأوضاع وتتشابه إلا بعد مضي أربعين ألف سنة، من أي جزء فرضته. وما يدريك لعله إذا تشابهت الأوضاع، بعد مضي أربعين ألف سنة، يحدث في العالم مثل ما كان أولا، **حتى لو كان في الوضع الأول من يكون اسمه (محمد عبده) فقد يكون في الوضع المشابه له من يكون اسمه كذلك، وهكذا جميع الحالات والكيفيات التي كانت، يكون مثلها . . »**.

١٣ ـ كما نلتقي في هذه التعليقات بإحدى العبارات التي ميزت أسلوب الأفغاني عن أسلوب محمد عبده، والتي نستطيع أن نقول إنها كانت من «لوازم» أسلوب جمال الدين . . فعندما ترد الإشارة إلى عالم قد انتقل إلى جوار ربه، يكون المألوف في أسلوب محمد عبده الترحم عليه، بعبارة رحمه الله . . . أما الأفغاني فإنه يستخدم غالبًا عبارة: «قدس سره» . . وهي عبارة نلتقى بها في التعليقات . .

١٤ ـ ودليل أخير يتعلق بتاريخ الطبعة الأولى للكتاب الذي ضم هذه التعليقات، فلقد قال الشيخ مصطفى عبد الرازق في محاضرته عن الأستاذ الإمام في ذكراه

بالجامعة المصرية ـ يوليو سنة ١٩٢٢م ـ: إن هذه الحاشية (التعليقات) قد طبعت قبل وفاة الأستاذ الإمام، وعندما رجعنا إلى طبعتها الأولى، التي أخرجتها المطبعة الخيرية، والتزم بطبعها «عمر حسين الخشاب» وجدنا على صفحة غلافها الداخلي تاريخ سنة ١٣٢٢هـ، مما يعنى أن الكتاب قد طبع في حياة الأستاذ الإمام، وأنه قد رأى اسمه على غلافه، ورضي بنسبته إليه . . ولكننا وجدنا الحقيقة عكس ذلك، أو لا تعني ذلك، ففي الصفحة الأخيرة من الكتاب (ص٢١٢) تحديد لتاريخ طبع الكتاب بأنه «أواخر شعبان المعظم سنة ١٣٢٣هـ» .

ومعلوم أن الأستاذ الإمام قد توفي في ٧ جمادى الأولى من نفس العام ـ سنة ١٣٢٣هـ ـ أي أن الكتاب قد طبع بعد وفاة الإمام بأربعة أشهر، وهي الوفاة التي أعقبت مرضًا استمر عدة أشهر. بل إن اسم الإمام يذكر في الصفحة الأخيرة من الكتاب هكذا: «العلامة الأوحد، الفهامة الأمجد، المرحوم الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية . . » .

وإذن، فليس صحيحًا أن الكتاب نشر في حياة الإمام . .

* * *

ونحن لا نريد أن نطيل أكثر من ذلك في إيراد الحجج والأدلة على أن كتاب (التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية) إنما هو للأفغاني، وأن جهد الشيخ محمد عبده فيه إنما هو جهد الصياغة بعد التلقي، ثم التحقيق والتعليق . . ويكفي للقارئ، فضلاً عن المحقق، أن يختار أي نص من نصوص هذه التعليقات البالغة حدا كبيراً من الدسامة والعمق والإحاطة بمشكلات الفلسفة وعلم الكلام، وأن يقارن بينها وبين أسلوب الأستاذ الإمام في تلك الفترة، والذي كان لا يزال أسلوب مبتدئ ملتزم للسجع عندما ينشئ، كي يؤمن ـ كما نؤمن ـ ويوقن ـ كما نوقن ـ أن الذين نسبوا هذا النص إلى الأستاذ الإمام، ورتبوا ما رتبوا على ذلك من آراء، قد خانهم التوفيق؛ لأنهم لم يسلكوا الطريق العلمي لتحقيق النصوص . .

وإحقاقا للحق، نقول إن الشيخ رشيد رضا قد أدرك بحاسة «السلفي المحافظ» أن فكر هذه التعليقات متميز عن الفكر الذي عرفه عن الأستاذ الإمام في هذه الموضوعات، ولكنه لم يصل إلى تحقيق نسبتها إلى صاحبها الفيلسوف الأفغاني، ولعله لم يحاول ذلك.. فبينما نجده قد احتفل كل الاحتفال «برسالة التوحيد» واعتبرها «معجزة من معجزات النبي، عليه الصلاة والسلام، ظهرت على يد الأستاذ الإمام، وآية من آيات الإسلام.. إلخ.. إلخ»[١]، نجده يقول عن هذه التعليقات: إنها «غاية الغايات في علم الكلام، وتحقيق مسائله، وتحرير الخلاف بين المتكلمين، وبيان ما هو لفظي منه وما هو حقيقي، وقد اهتدى في كثير من أبحاثها إلى أن الحق في العقائد هو مذهب السلف، **ولكن كثيرًا من نظريات المتكلمين وتأويلاتهم ظلت ناشبة في ذهنه زمنًا طويلاً، ولا يزول مثل هذا إلا رويدا رويدا..»؟!!**[٢] فهو هنا يكاد أن يقول، بل قال بالفعل، إن أفكار هذه التعليقات من أثر علاقة الأفغاني بالإمام في فترة حياته الأولى، وإن هذه الآثار ظلت ناشبة في ذهن الإمام، وإن أثرها لا يزول إلا رويدًا رويدًا؟!..

* * *

.... وبعـد:

فلقد كتبتُ هذه الدراسة ـ التي حققتُ بها وفيها نسبة هذا النص ـ «التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية» ـ إلى جمال الدين الأفغاني.. وليس ـ كما شاع ـ إلى الإمام محمد عبده ـ..

كتبتُ هذه الدراسة قبل نحو ربع قرن، ونشرتها ضمن التقديم لأعمال جمال الدين الأفغاني[٣].. والآن.. ونحن بصدد تقديم «الآثار الكاملة لجمال الدين»،

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٧٧٩.

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٧٧٨.

(٣) طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت عام ١٩٧٩م.

تلك التي جمع شواردها، وتتبع متفرقاتها في مكتبات الشرق والغرب، العالم الجليل **السيد هادى خسرو شاهي**، أود أن أقول:

إن هذه التعليقات، التي أملاها جمال الدين الأفغاني، على شرح الدواني للعقائد العضدية، في سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي ـ أي قبل قرن وثلث القرن ـ قد مثلت ـ في يقظتنا الفكرية الحديثة ـ بواكير التجديد لعلم الكلام الإسلامي، ليكون هذا العلم ـ كما كان في عصور نشأته وازدهاره ـ الفلسفة المتميزة لعقيدة الإسلام وأمة الإسلام وحضارة الإسلام.

فعندما أملى الأفغاني هذه التعليقات، كان التراجع الحضاري للأمة الإسلامية قد آل بعلم الكلام الإسلامي إلى محض مماحكات لفظية، ومجرد جدل عقيم غلب عليه «الشّغب» بين تيارات الجمود والتقليد، الأمر الذي أحدث فراغا فلسفيا لدى العقل المسلم، وجفافا وعقما في هذا الميدان من ميادين التفكير. فكان أن انفتحت الأبواب أمام الفلسفات الوضعية والمادية الغربية، التي جاءت إلى عالم الإسلام في ركاب الغزوة الأوروبية الحديثة، كى تملأ هذا الفراغ الفلسفي، كجزء من منظومة التغريب التي أخذت تتسلل إلى العقل المسلم في ذلك التاريخ..

وهنا كانت ريادة جمال الدين الأفغاني الفلسفية، عندما توجه إلى تجديد علم الكلام الإسلامي، ليكون ـ كما كان قديما ـ الفلسفة المؤمنة للأمة المسلمة، والعقلانية المؤمنة المنافحة عن دين الإسلام..

وبعد هذه الريادة ـ التي تمثلت في هذه «التعليقات» ـ توالت إبداعات الأفغاني في حقل الفلسفة الإلهية.. فأملى «رسالة الواردات في سر التجليات».. وكتب «رسالة الرد على الدهريين».. ثم جاء تلميذه الإمام محمد عبده فكتب «رسالة التوحيد».. ثم جاء تلميذهما الشيخ مصطفى عبد الرازق «١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ/ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م» فكتب «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية»، وفيه جعل علوم

الأصول الإسلامية ـ أصول الدين وأصول الفقه ـ هي الإبداع الفلسفي للعقل المسلم ولحضارة الإسلام . . فانفتح الباب ، وتمهد الطريق لتجديد علم الكلام الإسلامي ، كي يكون الفلسفة المؤمنة ـ والمتميزة ـ للإسلام والمسلمين . .

لقد كتب «ألفريد جيوم Alfred Guillaume» متعجبا ـ وهو ابن الحضارة الغربية التي أقامت التناقض الحاد بين الفلسفة والعقلانية وبين الإيمان والدين ـ كتب متعجبا من قدرة المسلمين على إبداع عقلانية مؤمنة ، وفلسفة دينية ، تجسدت في علم الكلام الإسلامي ، الذي مثل ـ وفق عبارة «جيوم» ـ : «فلسفة منطقية . . تُدْرَسُ بوصفها من صميم العقيدة الدينية . . .»(١) .

* * *

واليوم . . ومد اليقظة الإسلامية يعلو مكتسحا الأنساق الفكرية و«الأيديولوچيات» الغربية الوافدة . . وظاهرة الصحوة الإسلامية قد غدت وتغدو أعظم ظواهر العصر الذي نعيش فيه . . وطلائعها تتوجه للقيادة في ميادين تحرير الأرض . . والعقل . . والأموال والثروات . . تشهد الساحة الفكرية ، على امتداد عالم الإسلام ، جهوداً ملحوظة على درب التجديد الفكري ، في ميادين السياسة . . والاجتماع . . والاقتصاد . . والعلاقات الدولية . . والآداب والفنون . . إلخ . . إلخ . . وتشتد الحاجة إلى أن يولى هذا العقل المسلم المزيد من الاهتمام لتجديد علم الكلام الإسلامي ، لتتكامل سمات وقسمات هذا «البديل الحضاري الإسلامي» ، الذي تسعى اليقظة الإسلامية إلى بلورته «مشروعا نهضويا» ، يحرر العقل المسلم من فكرية التغريب والتبعية الثقافية ، ويعيد لهذه الأمة تميزها الحضاري ، الذي هو «بصمة الإسلام» في منتدى الحضارات والثقافات . .

ولهذه الحاجة الفكرية . . ولهذه الضرورة الحضارية . . تأتي أهمية إعادة النشر

(١) جيوم : «الفلسفة وعلم الكلام» ص ٣٧٩ . طبعة بيروت عام ١٩٧٢م ـ ضمن كتاب «تراث الإسلام» .

لهذا النص الفلسفي العميق، الذي أملاه جمال الدين الأفغاني، في صورة «تعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية» . . في ضمن مجموعة «الآثار الكاملة» التي قام بجمعها ودراستها كما أشرنا العالم الجليل، السيد هادي خسرو شاهي ونشرها مرة في إيران، والآن ينشرها في القاهرة . . لتعم الفائدة . . بإذن الله .

والله نسأل أن ينفع به اليوم وغدا . . ودائما . . كما نفع به في الأمس القريب والبعيد . . إنه ـ سبحانه وتعالى ـ أعظم مسئول وأكرم مجيب .

دكتور محمد عمارة

القاهرة ٢٩ ربيع أول ١٤٢٢هـ

٢١ يـونيـة ٢٠٠١م